

البركة المحمدية¹

محمود شبستري

ترجمة سيّد حسين نصر

الكلمات المفتاحية: حسين نصر؛ البركة المحمدية؛ السنة النبوية؛ أسماء النبي ومظهره؛ السنة الباطنية؛ السنة الجوهرية.

أهمية السنة والحديث

إنّ التأسّي بالنبي، ويأتي في صلب التقوى والمعنوية الإسلامية، يبنى على سنته. في حين أنّ وجوده الباطنيّ، جوهره النبويّ، يُمثّل المنبع الخفيّ للمعنوية وتقف حياته لوحة يتأمل المسلم فيها. فالسنة تحمل أمثلة وافرة وحسيّة عن الأسوة المحمدية التي أثنى عليها القرآن. تحوي السنة الباطنية تلك القيم والكمالات التي ترددت في القرون اللاحقة في أعمال المتصوّفة. أمّا السنة ككلّ، ففيها الخطوط العريضة لكلّ أوجه الحياة اليومية المسلمة، من تناول الفطور إلى حكومة الأمة. إنّ السنة هي تفسير للقرآن بقدر ما هي دليل على كيفية عيش أقدس خلق الله محمد صلى الله عليه وآله حقائق النصّ المقدّس في حياة إنسانية لكنّها مُستغرقة في المقدّس. فبالسنة صارت الحياة بكلّها مقدّسة. فالشريعة نفسها، وهي تعطي الحياة الإسلامية نسيجها، لا تنبني على القرآن فحسب، بل على الحديث أيضاً، وبطريق أعمّ، على السنة وهي كلّ الأفعال والتقاليد التي خلفها النبي، الحديث ضمناً.

غير أنّ النصوص الإسلامية كثيراً ما تذكر، لدى تعاطيها مع الحديث والسنة، فارقاً بينهما. فالحديث يحوي كلمات النبي، بينما السنة تتضمن كلاً من كلماته وأفعاله الخاصّة والممارسات التي لم يشجبها في التقليد العربي السابق على الإسلام وبالتالي استمرت مع المسلمين. هو بهذا أسلم هذه الممارسات رغم مصدرها الماقبل-إسلامي. فالوحي عادة ما يأخذ لون المتلقّي - إلى حدّ ما. في حالة السنة، صحيح أنّ

¹ العنوان الأصلي للنص هو "السنة والحديث"، ولكنني أرى في عنوان "البركة المحمدية" دلالة على مضامين أكثر غنى وإن كان لا يحكم تمام النص؛ في أيّ الأحوال، ففيه من البركة ما يكفي لاختياره عنواناً.

بعض الوجوه اشتقت من التعاليم القرآنية، أو كانت تعليقات عليها وتطبيقات لها، إلا أنّ وجوهاً أخرى كانت أسلمة لبعض التقاليد العربية التي أراد الله للنبي أن يدمجها في الكون الإسلامي من خلال قبولها على أساس الوحي الجديد. إنّ وحدة السنّة بتمحورها حول النبي وقوله وفعله لا تتأثر سلبيًا بقبول معطيات وتقاليد سابقة على الإسلام.

السنّة

إنّ السنّة جدٌ محوريّة في كلّ أوجه المعنويّة الإسلاميّة؛ من خلال التأسّي بها يُحرز المسلم بعض الفضائل التي يمتلكها النبي بتمامها. إنّ المسلم يرى النبيّ بعيون سيرته – كيف تصرّف وتكلّم ومشى وأكل وحكّم وأحبّ وعبد. بهذا تكون السنّة تتمّة لحياة النبيّ كيما تراها الأجيال اللاحقة، فتتأمل بصورة الإنسان الذي تذكره أسماؤها، وبوجوده المادي وبالبركة المحمديّة التي تسري أبدًا من خلال قوّة أسمائه وسنّته.

أَسْمَاءُ النَّبِيِّ وَمَظْهَرُهُ

إنّ الكمال الذّاتيّ للنبيّ كأرقى وأكمل مخلوقات الله، لا يُمكن له إلا أن يتمظهر ويتجلّى في ملامحه الخارجيّة. فلقد امتلك محمد (صلّى الله عليه وآله) سيماء غايّة في الجاذبيّة ما زادها كُرّ السنين إلا جمالًا. وقد وصفه لنا عددٌ من رافقه ومنهم عليّ بن أبي طالب (عليه السلام)، صهره وابن عمّه الذي تربّى على يديه وعرفه أكثر من الآخرين. يصفُ عليّ النبيّ بهذه الكلمات:

كان النبيّ صلّى الله عليه وآله أبيض اللون مُشترّبًا بحمرة، أدعج العينين، سبط الشعر، كثّ اللحية، ذا وفرة، دقيق المسربة، كأنّما عنقه إبريق فضّة، يجري في تراقيه الذهب، له شعر من لبتّه إلى سرّته كقضيبيّ خيط إلى السرة، وليس في بطنه ولا صدره شعر غيره، شثن الكفّين والقدمين، شثن الكعبين، إذا مشى كأنّما ينقلع من صخر، إذا أقبل كأنّما ينحدر من صعب، إذا التفت التفت جميعًا بأجمعه كلّ، ليس بالقصير المتردّد، وبالطويل المعط، وكان في وجهه تداوير، إذا كان في الناس غمرهم، كأنّما عرقه في وجهه اللؤلؤ، عرقه أطيب من ريح المسك، ليس بالعاجز وباللئيم، أكرم الناس عشرة، وألينهم عريكة، وأجودهم كفاً، من

خالطه بمعرفة أحبّه، ومن رآه بديهة هابه، عُزّةٌ بين عينيّه، يقول ناعته: لم أرَ قبله ولا بعده مثله، (صلى الله عليه وآله وسلّم تسليماً).²

حتى الجمال الخارجي للنبيّ فيه ما فيه من أهميّة معنويّة مباشرة، وقد تغطّي به الشعراء بكلّ الألسن، العربيّة والفارسيّة، الفصحى والعاميّة. لقد شبّهوا وجهه بالقمر في ليلةٍ تمامه وقامتّه بشجرة السّرو؛ ولقد قيل إنّ ما من جمالٍ في العالم يستطيع أن ينافس جمال سيمائه. وهذا التّقدير لجمال النبيّ في العين المسلمة إنّما يُشكّل مفردةً من مفردات المعنويّة الإسلاميّة متممّةً لخوف وحبّ ومعرفة الله القيوم في تعاليه.

وكما ترى "محمّد رسول الله" مباشرةً بعد "لا إله إلاّ الله"، فإنّ أسماء النبيّ تنساب من أسماء الله عزّ وجلّ وهي سلّم الوصول إليه. أضف إليه أنّ الله قد أكرم محمّداً صلى الله عليه وآله وحباه ببعض الأسماء الحسنی من مثل "طه" و"نور". وذكّر أسماء النبيّ من أهمّ الممارسات الصّوفيّة، ويدخل في الحركة اليوميّة لعديدين من أتقياء المسلمين. أنشد الشاعر التّركي الصوفي "يونس إمري" قبل سبع قرونٍ قائلاً:

أرجوك صلّ لنا يوم الدين

إنّ اسمك جميل، وأنت جميل، يا محمّد!

إنّ كلمتك مسموعةٌ عند الله ربّنا

إنّ اسمك جميل، وأنت جميل.³

والنبيّ ليس فقط محمّد صلى الله عليه وآله (أكثر من يتلقّى الحمد)، بل هو أحمد (أكثر من يتلقّى الحمد بين من يحمد الله). هو الواحد؛ وهو الماحي، ماحي الظلمة والجهل؛ وهو العاقب، آخر الأنبياء.

² مقتبس من *Sheikh Tosun Bayrak, al-Jerrahi al-Halveti, The Most Beautiful Names* (Putney, VT: Threshold Books, 1985) 141.

³ ترجمة A. M. Schimmel في كتابها *Muhammad and His Messenger* (Chapel Hill: University of North Carolina Press, 1985), page 105, بتصرّف.

هو الطَّاهِر، التَّقِيُّ؛ وهو الطَّيِّب، صاحب الطَّيِّبِ والجمال؛ وهو السَّيِّد، أمير الكون. وهو بالطَّبَعِ الرَّسُول، رسول الرَّحْمَةِ؛ وخاتم الرُّسُل، هو ختم النَّبُوَّة. ومحمَّدٌ أيضًا عبد الله وحبَّيبه وصفِيَّه، مثلما هو النَّاصر والمنصور. إنَّ النَّبِيَّ هو المحيِّي، محيي القلوب، وهو المنجِّي (من الخطايا). هو النَّور والسَّراج ومصباح الدَّرب والمُهْدَى. هو ذو القُوَّة وذو الحُرْمَةِ وذو المكانة، إنَّه هو مفتاح الرَّحْمَةِ. وبهذا يكون حبُّ النَّبِيِّ إِمَارَةً على حبِّ الله ومفتاحًا لرحمته التي صدر عنها جوهرُ الكون.

بذكره أسماء النَّبِيِّ، يقترَب المسلم منه ويتشارك معه، بقَدْرِ ما، تلك الصِّفَات والفضائل التي تعكسها هذه الأسماء. إنَّ أسماء النَّبِيِّ هي ألوانُ لوحَةِ النَّبِيِّ المعنويَّة المعلقة على قلوب ونفوس جماعته، مُسهِّلة التَّأَسُّي بسُنَّتِهِ، فاتحة قناة لتلك البركة التي تسري عندما نعيشُ سُنَّتَهُ في حياتنا. بمعنى ما، يُشكِّلُ كلُّ من أسماء النَّبِيِّ وتقديرِ جماليِّه عناصرَ من السُّنَّةِ هي عُمدَةٌ في الحياة المعنويَّة في الإسلام.

بَعْضُ أَوْجِهِ السُّنَّةِ

تشتمل السُّنَّةُ على الخيوط التي منها خِيِطَتِ الحياة الإسلاميَّة. ورُغم أنَّ المسلمين لا يعيشُ كُلُّهم بما تقتضيه السُّنَّةُ — لكون الطَّبِيعَةِ البشريَّةِ على ما هي عليه — فإنَّ ممارسةَ السُّنَّةِ ظَلَّتْ مثلاً أعلى يُرَادُ الوصولُ إليه. وهو مثلاً تحقُّقٌ بدرجةٍ كبيرةٍ عبر العصور وكان، بأيِّ الأحوال، همًّا أساسًا لكلِّ من رام العَيْشَ بحسب "المثال الحمدي".

كما مرَّ ذكره، تُعْطَى السُّنَّةُ كلَّ جوانب الحياة الإنسانيَّة من الصَّلَاة إلى التَّعاطي مع العائلة والمجتمع، من المعاملات التجاريَّة إلى الرِّفْق بالحيوان، إلى إدارة الدَّولة. عندما يجيِّي المسلم آخرَ بقوله "السَّلَام عليك" فهو يقتصُّ أثر السُّنَّة. وعندما يحاول امرؤ أن يُعامل اليتيمَ بحنوٍ أو الكبيرَ باحترام فهو يسير بحسب السُّنَّة. وكذلك عندما يسعى ليكون ثقةً أو صادقاً أو كريماً فإنَّ السُّنَّة دافِعُهُ — لكنَّها، في هذا السياق، السُّنَّة الباطنيَّة ذات المحوريَّة في الحياة المعنويَّة.

حتى أدقِّ تفاصيل الحياة لا تخلو من تدخُّل السُّنَّة، ويعي المتقون من المسلمين البركة التي تصدر عن هكذا أعمال يومية عندما يُقصدُ منها محاكاة المثال الحمدي. أمَّا على مستوياتٍ أعلى من التَّحَقُّق

المعنوي، فإنّ البركة المحمّديّة تجري من وجود الشّخص الذي عاش السُّنّة الباطنيّة، الذي لا يخلو قلبه من ذكر الله. ولهذا قيل إنّ النّور المحمّديّ ينعكس من وجوه المؤمنين وإنّ البركة المحمّديّة تظهر في حضورهم وحركاتهم وتصرفاتهم.

فالأصل، من وجهة نظر المعنويّة، هو السُّنّة الجوهرية أو الباطنيّة، وهي لا غنى عنها. أمّا السُّنّة الظاهريّة فسندٌ شكليّ لها⁴. وتُعنى السُّنّة الجوهريّة بشكلٍ أساس بالفضائل الباطنيّة للنبيّ والكمالات المعنويّة التي تصدر عن جوهره التّبويّ. والسُّنّة الظاهريّة إنّما هي طريقٌ إلى هذه الفضائل يُمكنُ التّفنّن أن تتزيّن بها. ورغم كونه آخر الأنبياء، نبيّ الإسلام الذي أعاد الإنسان إلى فطرته، هناك فضائل محوريّة تُميّز الطّبيعة الباطنيّة للنبيّ: التّواضع والإحسان والصدق والأمانة. تعكس السُّنّة هذه الفضائل على مستوياتٍ شتى، وبالتّأسّي بها تصير نفس الإنسان المسلم محبوباً بها. بمعنى من المعاني، يُمكن القول إنّ الجنبّة العمليّة للمعنويّة الإسلاميّة تتكوّن من التّزيّن التدريجيّ للنفس بالصفّات المحمّديّة. في الواقع، يُسمّى من يمتلك طابعاً معنويّاً في الإسلام بالمحمّديّ، لأنّه بالتزامه السُّنّة أحرز بعض الفضائل بتمامها وكماها بمعونة آخر الأنبياء.

السُّنّة والأدب

الأدب من أهمّ المفاهيم المفتاحيّة في الثقافة الإسلاميّة ويتوقّف على فهمه وعي الأبعاد المختلفة للمعنويّة في الإسلام ولعلّه كمصطلح دخل العربيّة من الفهلويّة ومع هذا فهو مفهوم إسلامي أساس. الأدب يعني الكياسة والسُّلوك الحسّن والخلق الحميد والتّنشئة الصّحيحة والتّهذيب والثّقافة في آن. أن تمتلك الأدب يعني أن تتأصّل في نمطٍ يستحوذ على العقل، ولكن على التّفنّن والجسد أيضاً. الأدب يعني أن تكون مُهدباً أمام كبار السنّ؛ أن تدرك التّراتبيّة الذاتية للقيم الإنسانيّة؛ أن تعرف متى تنطق ومتى تصمت، متى تقف ومتى تقعد، كيف تأكل وكيف تتصرّف، وفي مختلف الأحوال. ورغم أنّ بعض أوجه الأدب ككيفية

⁴ انظر F. Schuon, "The Sunnah" في كتابه *Islam and the Perennial Philosophy*

ترجمة J. P. Hobson (London: World of Islam, 1971) 111-17.

التعاطي مع الضيف يُجدِّده المعطى الثقافي المحلي، فإنَّ للأدب وجهًا أعمق يرتبطُ بتهديب النَّفس كما الجسد في علاقته مع النَّفس. إنَّ لهذا الوجه في الأدب أهمية كبرى في الحياة المعنوية ولا بدَّ من توفر قدرٍ منه كافٍ للولوج إليها.

وتنهمك الصوفية، في كثير من اهتماماتها، بهذا الجانب المعنوي للأدب، وعادةً ما تمتلك المراكز الصوفية قوانين مُنمَّقة ووافية ترتبط بأصول التعاطي مع المرشد والإخوان ومع العالم في الخارج. غاية هذه القوانين أن تُهدِّب النَّفس وأن تحببها بالملكات الضرورية لسلوك درب المعنوية⁵. وللأدب دور هامٌّ في صدِّ هوى النَّفس وردعها عن شهواتها المفرطة.

ليس الأدب بكلِّه منبنيًا على السُّنة، ولكنَّ أشكاله الأساسية تُشتقُّ منها وفي بعض الأحيان تجدُّ ترادفًا بينهما. وفي جميع الأحوال، فإنَّ الأدب، ووجوده جليٌّ في المجتمعات الإسلامية التقليدية، يرتبطُ بالسُّنة أيما ارتباط وهو مرآة تعكسُ العادات والممارسات النبوية على مستوى هو غاية في الأهمية معنويًا واجتماعيًا.

إنَّ سُنَّة النبي هي تطبيقٌ بشريٌّ لتعاليم الإسلام كما نطق بها القرآن، وكان أوَّل من طبَّق هو أكثر البشر كمالًا وقدرةً على استيعاب أوامر الله ووضعها موضع التطبيق في حالاتٍ شتى. أن تتأسى بالسُّنة يعني أن تعيشَ مسلمًا بمقتضى إرادة الله وبحسبها؛ أن تُقلِّد حبيب الله فتصيرَ لله حبيبًا. والسُّنة تحتضنُ كلَّ مجالات الحياة، وفي قلبها السُّنة الباطنية، وهي ليست سوى آثار الجوهر المعنوي للنبي. أن تعيش بحسب هذه السُّنة هو أن تعيش في حالة الذكر الدائم؛ أن تقسو على نفسك وتكون كريمًا مع الآخرين؛ أن تُدرك لا شيءَ منك أمام العظمة الهائلة، وأن تعيش حقيقةً ويقينًا القدرة المخلصة للواحد المطلق واللامتناهي. لا معنوية إسلامية ممكنة من دون السُّنة، فإنَّ أبواب العوالم العليا فتحت للمسلمين من بين

⁵ يوجد، في الكتابات الصوفية، فئةٌ مستقلة من الكتابات تُعنى بـ'أدب المريدين' أو 'أدب الخانقاه' غايتها تدريب النَّفس بما يرتبط بتأدب السالكين؛ لعلَّ أشهر هذه الكتابات 'أدب المريدين' لأبي نجيب الشهرودي.

العالمين بواسطة النبي في معراجه. هو وحده من يمتلك مفاتيح الأبواب وهو وحده القادر على هداية المسلم في درب التحقُّق المعنوي⁶.

الْحَدِيث

يُشكِّل الحديثُ جزءًا من السنَّة، لكونه ما يختصُّ بما وردَ عن النبي "شفاهيًا" أو "كلاميًا" لا عمليًا. صحيحٌ أنَّ مُفردةَ الحديث - جمعها أحاديث - تعني القَوْل - جمعها أقوال -، إلَّا أنَّها تُستعمل بمعنى "التقليد". ويُسمَّى كلُّ الصرح الشفهي للنبي بالحديث، إذ يُشكِّلُ جسدًا منفصلاً لكلِّ ما ذكره النبي وقد تمَّ تجميعه في كتب أساسية تُعتبر غايةً في الأهمية لكلِّ جوانب الفكر الإسلامي، وحدهُ القرآن يفوقها شأنًا وسلطةً. ولا يخفى على متابعٍ أنَّ هذا الحديث، بدوره، أوَّل وأهمُّ تفسيرٍ للقرآن. وفي الوقت عينه، هو يُكَمِّل الكتاب ويشرح آياته. فالحديث هو بمثابة تنمَّة بلسان بشريٍّ للكلمة الإلهية وهي القرآن.

شهد القرنان الأوَّلان للإسلام حفظ وتطبيق وأولى محاولات تقنين الحديث. ومع نموِّ الجماعة المسلمة وتباعد الأمة زمنيًا عن عصر الرسول وصحابته الأقربين، برزت الحاجة لتصنيف وتمحيص وتوثيق الحديث وكبرت، وبالتالي وجدت من العلماء من يتصدى لها. وهكذا تطوَّر عددٌ من العلوم في إطار علم الحديث، من قبيل علم الدراية الذي يُعنى بصحة السند من حيث الطابع الأخلاقي، والتقوى، والمكانة في الجماعة للرجال والنساء الذين واللواتي قمنَ بنقل الحديث المقبول. لعبت النساء دورًا بارزًا، إلى جانب الرجال، في نقل وتوثيق وقونة الحديث، وقد كانوا جميعًا ممن يخافون الله. وعلى النقيض من الكثير من ناقدَي الحديث الغربيين المعاصرين، فقد كانت مخافة النار هماً واقعيًا بالنسبة إليهم، وبهذا يكون أيُّ تحريف أو تزيف للحديث المنقول عن النبي معصيةً عقابها العذاب الأبدي. لظالما كان المحدثون مجموعةً صغيرةً من العلماء تميَّزت بالتقوى والفضيلة إلى جانب ثرائها المعرفي.

⁶ يجب الإنفات بأنَّ كلَّ المرشدين الصوفيِّين يأخذون حقَّ القيادة guide initiatically من النبي وهم ممثِّلون عنه

في الجماعات المعنوية التي يرشدوها.

قام العلماء المذكورون بغرلة الحديث وقسموه إلى يقيني ومشكوك فيه ومنحول (مزيف). ومع الوقت تطوّرت العمليّة فأنّجت الأعمال الستّة المهمّة التي تمّ قبولها في العالم السُّنِّي، وعادةً ما تُسمّى بالصِّحاح، وهي "جامع الصحيح" لأبي عبد الله محمد البخاري، "صحيح" أبي الحسين عساكر الدّين مسلم، "سنن" أبي داود السجستاني، "الجامع" لأبي عيسى محمد الترمذي، "سنن" أبي عبد الرحمن السّائبي، و"سنن" أبي عبد الله محمد ابن ماجه. كما برزت أعمالٌ أخرى مثل "سنن" الدارمي و"الموطأ" لمالك بن أنس حظيت باحترام كبير لكنّها لم ترقّ لمنزلة الصّحاح السّنة. وقد نالت هذه الكتب السّنة، المجموعة في القرن الثالث هجري - التاسع ميلادي، قبول العلماء بشكل الإجماع. وهكذا صارت مصدرًا لا غنى عنه للإسلام السُّنِّي الذي اعتمد عليها طيلة ألف سنة لمعرفة الحديث، فكانت مع القرآن العمادَ للدّين كلّهُ⁷. بالطبع، ثمّة أحاديث، خاصّةً تلك ذات الطّابع الصّوفي، ما ظلّ يُتوارثُ مشافهةً إلى أن دُوّنَ بعد قرونٍ في كُتب أقطاب المتصوّفة من أمثال الغزالي وجلال الدّين الرّومي. بيد أنّ الصّحاح السّنة انطوت على الأعمّ الأغلب من الأحاديث التي انبتت عليها العلوم الإسلاميّة من الفقه إلى الكلام والتي تطوّرت على فترات متطاولة.

أمّا عند الشيعة الإثني عشرية، فالحديث يُضمّم، إلى ما أُثِرَ عن النبيّ، ما نُقِلَ عن الأئمّة الذين يحملون النور النبويّ وممثّلون امتدادًا لوظيفة النبيّ في أبعاده اللاتشريعية. ويُميّز الشيعة بين الحديث النبويّ والحديث الولويّ (أي المنقول عن الأئمّة). وجميع الحديث كلّهُ عند الشيعة بعد قرنٍ من ظهور الصّحاح السّنة عند السّنة في ما يُسمّى بالكُتب الأربعة وهي، الكافي لمحمد بن يعقوب الكليني، من لا يحضره الفقيه لمحمد بن بابويه القميّ، وكتابين آخرين لمحمد الطّوسي، التّهذيب والاستبصار. جُمعت هذه الكُتب في القرنين الرابع

⁷ لمعرفة ما كُتِبَ في الحديث، أنظر *Muhammad Zubayr Siddiqi, Hadith Literature* (Calcutta: Calcutta University Press, 1961).

والخامس وكانت بمثابة الصّحاح عند الشيعة. إلا أنّ الكُتُبَ الشَّيعِيَّةَ لعبت دورًا أكبر في تطوُّر الفلسفة الإسلاميَّة في مراحلها اللاحقة، إذ كانت موردَ تفسيرٍ وتعليقٍ لعددٍ من جهابذة الفلسفة في الإسلام⁸.

بعد أن صارت الدِّراسات الإسلاميَّة فرعًا معرفيًّا مستقلًّا في الغرب مع بدايات القرن العشرين، قامت مجموعة من الباحثين - أهمُّهم إغناز غولدزيهر I. Goldziher يتبعه ألفرد غوييوم A. Guillaume، وجوزيف شاخت J. Schacht، وأرنت وينسينك A. J. Wensinck وآخرين - بتطبيق المنهج التاريخي المطوَّر في القرن التاسع عشر على الحديث. لقد انبنت أعمالهم على افتراض أن ما ليس بمُدوَّن فهو إمَّا إضافة لاحقة أو اختراع؛ وأنَّ الإسلام، دين الصَّحراء البسيط، لم يكن له أن يمتلك مبادئ ميتافيزيقيَّة وباطنيَّة محتواة في أقوال الرِّسول؛ وأنَّ التَّوارِثَ الشَّفهِيَّ وكلَّ فكرة الأرثوذكسيَّة التَّقليديَّة واستمراريتها التاريخيَّة لا تصحَّ. لقد نظر معظم هؤلاء الباحثين الغربيين إلى الحديث المقبول كانعكاساتٍ لمجتمع القرن الثالث الإسلاميِّ في فهمه لتراثه الديني وبالتالي لا تصحُّ نسبتها إلى النبيِّ أصالةً. عدلتِ الدِّراسات اللاحقة مثل دراسات أبوت N. Abbot هذا النقد عبر إبراز وثائقٍ سابقةٍ على القرن الثالث فيها الكثير من الأحاديث المعروفة. مع هذا، تظلُّ الرُّؤية الأكاديميَّة الغربيَّة مشكَّكةً في أصالة الحديث بالمعنى الذي فهمه المسلمون.⁹ ثمَّ كان من العلماء المسلمين أن تقدّموا بأجوبةٍ على اتِّهامات المستشرقين، وهم عارفون بأنَّ كُتَّاب الصَّحاح اختاروا ما يقربُ من ستَّةِ آلاف حديثٍ من بين قرابة ثلاثمائة ألف وأعلنوا صحَّتها

⁸ لعلَّ أهمَّ هذه التفاسير كتاب "شرح أصول الكافي" لصدر الدين الشيرازي. أنظر *S. H. Nasr, Sadr al-Din Shirazi and His Transcendent Theosophy (Tehran: Imperial Iranian Academy of Philosophy, 1978) 47; and H. Corbin, En Islam Iranien (4 vols.; Paris: Gallimard, 1971-72) 4:63ff.* وكان الفيض الكاشاني، أحد تلامذة صدرنا، محدِّثًا فذًّا إلى جانب كونه ميتافيزيقيًّا وفيلسوفًا.

⁹ من الأعمال الأكاديميَّة التي تعكس النقاش بين المسلمين حول النظرة الغربيَّة للحديث، كتاب *G. H. A. Juynboll, The Authenticity of Tradition Literature: Discussions in Modern Egypt (Leiden: Brill, 1969).*

بعد واحدةٍ من أكثر العمليّات العلميّة إجهادًا وفي الوقت نفسه تُقْمَى وحرصًا على المحافظة على التقليد، مع كلِّ ما يعنيه هذا الكلام¹⁰.

ليس هذا محلُّ التعمُّق في الجدل الدائر حول الحديث. ورغم بروز جماعاتٍ صغيرة من المسلمين في شبه القارّة الهندو-باكستانية والعالم العربيّ ممّن دعا إلى إعادة تفسير الإسلام على أساس القرآن فحسب، فإنّها لا تعدو كونها ظاهرة هامشيّة. قد يذكّرها المرء لدى قيامه بدراسةٍ شاملةٍ عن الإسلام كما قد يذكر الانتقادات الغربيّة للحديث كعلم، ولكنها ليست ذات قيمة عند من يحاول فهم المعنويّة الإسلاميّة. فطوال التاريخ الإسلاميّ، تغدّى أولئك الذين سلكوا درب المعنويّة بالحديث واهتدوا بالبركة المحمّديّة بما أحرزوه من ضمانةٍ وجوديّةٍ على أصالة الأحاديث التي وجمّعت حياتهم، وهي ضمانةٌ تصدر ذاتًا عن الموجود الذي كان عند أصل الحديث.

مَدَى الْحَدِيثِ

إنّ كُتِبَ الحديثُ هي نبذةٌ صادقةٌ عن الحكمة، وهدايةٌ تشمّلُ نواحي الفكر والحياة الإنسانيّة كلّها. كما السُنّة، هي تُعنى بكلِّ جانبٍ من جوانب الحياة كالأكل والنوم والتّعاطي مع الجار وتأمين الرزق للتّمسك والعائلة، وتُغطّي العلائق الاجتماعيّة والاقتصاديّة والسياسيّة التي تعني المجتمع ككلّ. كما تعني بشدّة بالشعائر والمناحي الطّقوسيّة للحياة الإسلاميّة والحياة الباطنيّة نفسها. أضف إلى ذلك أنّه ولكونه يتألّف من كلماتٍ لا أفعال كما في السُنّة، فالحديثُ يتعاطى بكثرة مع الميتافيزيقا، والكوزمولوجيا، ونشأة الكون، وعلم المبدأ والمعاد، وطبيعة الإنسان. ويتعاطى مع مسائل ذات طبيعة لاهوتيّة (كلاميّة) من قبيل مسألة الإرادة الحرّة والجبريّة ومع تفاصيل المسائل الشرعيّة التي لم تكن لتظهر من دونها المذاهب الأربعة التي قنن فيها الفقهاء العظام الشريعة الإلهيّة. والأمرُ يصحُّ تمامًا في حقّ التّشيع حيثُ القرآن والحديث، رغم الحضور الدائم لسلطة الإمام، يظللان المصادر الأساسيّة للشريعة.

¹⁰ أنظر، على سبيل المثال، *S. M. Yusuf, Ideals and Realities of Islam* (London: Allen

يعكسُ صحيحُ البخاري، أشهرُ الكُتُبِ السُنَّةِ، في عناوينِ كُتُبِهِ وفصولِهِ المدى الذي يشتمل عليه الحديث. فتجدُ فصولاً مكرّسةً لطبيعة الله والنّبوة، الخلق، المسائل الأخلاقية، الشعائر، الوصول إلى المعرفة، والآخرة. ليس ثمة جانباً لا يليه نورٌ حديثٍ ما، فمسائلُ ميتافيزيقية وكوزمولوجية مثل تكوّن العالم، أولية العقل، ومآل الإنسان، تضمّنها الحديث وكانت محطّ تأمّلٍ وتفكّرٍ ميتافيزيقيين لعصورٍ تلت.

وكذلك قُسمت الكُتُبُ الأربعة عند الشيعة إلى فصولٍ عكست المروحة الواسعة للموضوعات التي تعاطى معها الحديث. لا يخلو الأمر من اختلافات، رغم أنّ معظم الأحاديث التي أوردتها المصادر التقليدية، السُنّية والشيعة، هي نفسها. ومن هذه الاختلافات ما لعب دوراً مهماً في تطوّر الفلسفة وعلم الكلام الإسلاميين في قرونٍ لاحقةٍ مثل التركيز على العقل في المصادر الشيعة، حتّى لقد كرس الكليفي في "أصول الكافي" - ولعله أهمُّ الكُتُبِ الأربعة - كتاباً منفرداً للأحاديث المتعلقة بالعقل. صحيحٌ أنّ المصادر السُنّية تحوي العديد من الأحاديث التي تذكرُ فضائل ومناقب العقل، إلّا أنّك ترى فيه - العقل - محوراً أكثر أساسيةً في الكُتُبِ الشيعة منه في نظائرها السُنّية. تتعامل كلُّ من المصادر السُنّية والشيعة، بصورةٍ أكثر مباشرةً، مع المسائل المتعلقة بالمعرفة والحياة المعنوية. ولا مناص، لفهم المعنوية الإسلامية، من إدراك أهمية الحديث في بُعدهِ الظاهري، وكذا في بُعدهِ الباطني الأكثر مركزيةً.

الأحاديثُ القُدسية

الأحاديثُ التي تهتمُّ بالحياة المعنوية كثيرة؛ وثمة في الحديث المدوّن أحاديثٌ ينقلها النبي (صلى الله عليه وآله) عن الله إلّا أنّها لم تكن جزءاً من القرآن. وعادةً ما تُعنى هذه الأحاديث بالحياة الباطنية مباشرةً. تشكلُ هذه الأحاديث، وتُسمى الأحاديث القُدسية، مع بعض آيات القرآن، الأساس النبويّ الموحى للتصوّف وظلّت تتردّد عبر العصور في الأعمال الكثيرة للمتصوّفة¹¹. ومحلُّ اشتغال هذه الأحاديث هو الحياة الباطنية وطُرق الرياضة الروحية ورحمة الله وموضوعات أخرى.

¹¹ عن هذه الأحاديث، أنظر *W. Graham, Divine Word and Prophetic Word in Early*

Islam (The Hague: Mouton, 1975).

يتكلم الله في إحدى هذه الأحاديث على لسان النبي (صلى الله عليه وآله) فيقول:

أنا عند ظنّ عبدي بي، وأنا معه إذا ذكرني، فإن ذكرني في نفسه ذكرته في نفسي، وإن ذكرني في ملأٍ ذكرته في ملأٍ خير منهم، وإن تقرب إلي بشيرٍ تقربت إليه ذراعاً، وإن تقرب إلي ذراعاً تقربت إليه باعاً، وإن أتاني يمشي أتيته هرولة.¹²

في هذا الحديث، ليست الإشارة فقط إلى الذكر وهو الطقس الأساسي في الصوفيّة، بل هي أيضاً إلى عدم وجود تناسبٍ كيفي بين الجهد الإنساني على الدرب المعنويّة وبين الجزاء الإلهي. أيّ خطوةٍ يخطوها السالك إلى الله يقيّن تامّ ومن كلّ قلبه فهو يُجزأها بما لا يُمكن قياسه وبما يتخطى كلّ ما تستحقّه خُطواته.

ومع هذا فإنّ هناك تناسباً بين الإنسان والنظام الإلهي بمعنى أنّ الإنسان ليس بقادرٍ على محبة الله إن لم يلتفت الله بوجهه إليه ويتفضّل بمحبته عليه؛ ليس للإنسان أن يلتفت إلى الله إن لم يبادر الله إليه. ويؤكد حديثٌ قدسيّ آخر على هذه الحقيقة، "إذا أحبّ عبدي لقائي أحببت لقاءه، وإذا كره لقائي كرهت لقاءه"¹³. و في الحديث، "قد حقّت محبّتي للذين يتحابّون من أجلي، وقد حقّت محبّتي للذين يتزاورون من أجلي، وقد حقّت محبّتي للذين يتبادلون من أجلي، وقد حقّت محبّتي للذين يتصادقون من أجلي"¹⁴. وهذا الحديث هو أساس المجلس الصوفي حيث يجتمع رجالٌ ونساء ليذكروا الله.

ويؤكد حديثٌ قدسيّ آخر على لا تناهي الجزاء الإلهي الصادر عن رحمته تعالى نتيجة الجهود المعنويّة للإنسان، ولعلّه أشهر الأحاديث وأكثرها تداولاً. لهذا الحديث، حديث النوافل، نسخاتٌ متعدّدة، وهذه إحداها:

¹² المصدر نفسه، الصفحة 127.

¹³ المصدر نفسه، الصفحة 153.

¹⁴ المصدر نفسه، الصفحة 142.

من عادى لي ولياً فقد آذنته بحرب مَيّ، وما تقرب لي عبدي بشيء أحبّ إليّ مما افترضته عليه، وما زال عبدي يتقرب إليّ بالنوافل حتى أحببته فإذا أحببته كنت سمعه الذي يسمع به وبصره الذي يبصر به ويده التي يبطش بها وقدمه التي يمشي بها وإذا سألني لأعطينه وإذا استغفرتني لأغفرنّ له وإذا استعاذني أعدته.¹⁵

لا يُجَدُّ هذا الحديثُ الدائع الصَّيِّتِ مراحلَ القُربِ من الله فحسب، بل يُشير إلى سرِّ التَّألُّه والالتِّحاد، إذ إنَّ من يرى بعين الله، لا ريبَ يرى الله في كلِّ مكان، ومن يسمع بِسَمْعِ الله، يسمع صدى اسمه حيثما التفت وأيُّما صوتٍ اختبر.

تنفي هذه الأحاديث التَّساوي بين رحمة الله وعدله كما في المنقوش على العرش "وسعت رحمتي غضبي"¹⁶. أوليس هو القائل، "من عمل حسنة فله عشر أمثالها وأزيد"¹⁷. كما تُظهِرُ هذه الأحاديث رغبة الله بورود الإنسان عليه، فهو يقول، "من يسألني فأعطيه؟ من يستغفرتني فأغفر له؟"¹⁸، وحده من يمتلك القابليات المعنوية يعرف أنّ مجرد الاستغفار يستجلب رحمة الله إليه، وأنَّ الباب إلى الحضور الإلهي، طالما الإنسان باق على إنسانيته، مفتوح على الدوام والإنسان قادرٌ على الدنو بطلب المغفرة، حتى النبي نفسه ما ترك الاستغفار في كلِّ يوم.

ويجد السالك في الأحاديث القدسية واحداً من أرقى الأعمال المرتبطة بالحياة المعنوية، ففيها زبدٌ وخلاصة رسالة الحديث كُله. وباعتنائه بالحياة بكُلِّها، يلحظُ الحديثُ حتى الجوانب التي تبدو جدُّ اعتيادية فيما يتعلّق بالحياة اليومية. ولكنَّ حتى هذه الجوانب صارت مُقدَّسةً عندما عاشها النبي كما يُريد له

¹⁵ المصدر نفسه، الصفحة 173.

¹⁶ المصدر نفسه، الصفحة 184.

¹⁷ المصدر نفسه، الصفحة 175.

¹⁸ المصدر نفسه، الصفحة 177.

الإسلام وبهذا أكد على توحيد الله، ومن ناحية ثانية، أذاب الحياة كلها في قالب المقدس، فلم يترك شيئاً خارج إطار الديني والمقدس.

يقول القرآن: {إِنَّ اللَّهَ وَمَلَائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ، يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا، صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيمًا} ¹⁹. بالتأسي بسنة النبي، ودراسة الحديث المأثور عنه والتأمل فيه، يُحمل الإنسان بمعونته – النبي – وبجاذبية الجنة إلى الملكوت ويتشارك معه في معرجه. فالله يُحب من أحب النبي حبيبه. ولهذا يُحب المسلمون النبي؛ ويجدون في حياته وأقواله مصباح هداية ينير لهم درب وجودهم ويوصلهم إلى تمامه (استنجازها entelechy) وهو الله؛ درب ليس مرشده الأسمى إلا النبي نفسه.

وحدها الميم تقف بين أحمد وأحد

الكون كله منغمس في حرف أحد ²⁰

¹⁹ سورة الأحزاب، الآية 56.

²⁰ ترجمته عن الإنكليزية لتعذر الترجمة عن الأصل الفارسي:

Between Ahmad and Ahad (the One) there stands

But the letter (m).

The Universe is immersed in this single letter.